٢٤ السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب والكلثميون فى مصر

تميز الإسلام عن غيره من الأديان السماوية بتقديره للمرأة، فقد رفع هذا الدين الحنيف من مكانتها ووضعها الإجتماعى، حيث كرمها وقدرها. والتاريخ الإسلامى تشهد صفحاته بأن هذا الدين أفرز نماذج للمرأة الصالحة المؤمنة التى لا تقل إيماناً وصلاحاً عن الرجل، ولم يكتف بذلك، وإنما أفرد صفحات أخرى لهذه المرأة التى تجمع بين الإيمان والثقافة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولعل فى مقدمتها أمهات المؤمنين، زوجات النبى ﷺ، وفى مقدمتهم السيدة عائشة رضى الله عنها، التى روت الحديث الشريف وقامت بتفسيره، وعنها أخذ أئمة الإسلام وفقهاؤه وأصحاب المذاهب، وغيرهم.. وغير زوجات النبى على الصلاة والسلام كانت السيدة زينب، والسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، وشقيقتها السيدة فاطمة النبوية، ثم السيدة نفيسه بنت الإمام حسن الأنور رضى الله عنهما ـ التى كانت تعرف بنفيسة العلم والعلماء.. وغيرهن من هذه السلسلة الذهبية التى كانت خير مثال للمرأة المسلمة التى جمعت إلى إيمانها وتقواها، معرفتها وثقافتها، وكانت فى كل من الأمرين مصدراً يُرْجَعُ إليه، وهو ما يؤكد بصورة لا تدعو إلى الشك أن هذا الدين قد تميز بتقديره وتكريمه للمرأة وحقها فى المجتمع الإسلامى منذ بداياته.

ومن هذه النماذج المشرفة لهذا المجتمع الإسلامى على امتداده السيدة كلثوم التى عَرَّفَتْهَا كُتب السِّير والتراجم بأنها من الزاهدات العابدات القانتات، الحافظات للقرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن المتفهمات لتعاليم دينها، الواعيات بما فرضه عليها هذا الدين من واجبات، وما منحها من حقوق. حتى كانت قِبْلَة ليس لبنات جنسها من النساء فحسب، بل ملتقى لمن يريد معرفة أمر دينه من الرجال، يأخذ عنها ويستفيد.

وكانت هذه السيدة الفضلى إلى جانب تقواها وإيمانها، ثقافتها ومعرفتها، تتمتع بميزة أخرى لها جاذبيتها بالنسبة للمسلمين، وذلك لكونها من العترة الشريفة.. عترة رسول الله ﷺ، فهى بنت الإمام القاسم الطيب بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم أجمعين.

وكانت على جلال هذا الحسب والنسب، الثقافة والمعرفة.. متواضعة لله. يلتقى فى أعماقها علم الصالحين، وحُسن بلائهم. وصلاح وتقوى الأولين من آل البيت، وحسن شمائلهم.. الأمر الذى جعل الناس يلتفون حولها إمَّا طلباً للبركة كواحدة من آل البيت أو التماساً للعلم. وهما أمران يكفى المرء أن يحقق أحدهما، طهارة النسب، أو شرف العلم. ليكون موضع كل تقدير وإجلال.

ولعل شهرة هذه السيدة الفضلى بانتسابها إلى آل البيت جعل المؤرخين والرواة يقولون عنها ما نقلته الدكتورة سعاد ماهر بكتابها مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ما نصه: «وشهرتها تغنى عن الإطناب فى مناقبها، هذه الشهرة التى استمدتها من وضعها كواحدة من آل البيت وما يحاطون به من التوقير والتقدير..».

وإذا كان للوراثة، وظروف النشأة الأولى دخل كبير فى تكوين شخصية الإنسان وتوجهها بسمات وملامح معينة مستمدة ولا شك من هذه الوراثة والنشأة كما استقر عليه العلم. فقد كان للوراثة والنشأة الأولى دخل فى تكوين شخصية هذه السيدة الفضلى. فقد عاشت فى رحاب أسرة ذات علم وفضل. يتقدمها والدها الإمام العالم القاسم الطيب وشقيقها الإمام يحيى الشبيهى، اللذان سبق الحديث عنهما فى هذا الكتاب. هذه النشأة والوراثة أشار إليها ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» نقلا عن ابن النحوى حيث تحدث عن والدها فقال: «كان الإمام القاسم الطيب رضى الله عنه من أحفظ الناس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كتب أو نقل عن هذا الرجل الصالح أربعمائة محبَرة وكان من الأشراف الأجواد».

وإلى جانب حفظه للحديث الشريف، ونقله عنه كان مفسراً للقرآن الكريم والأحاديث النبوية. راويه لمآثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين.

وكذلك يصف ابن الزيات فى «الكواكب السيارة» نقلا عن أبى عمر قائلاً: «قال أبو عمر: رأيت القاسم الطيب بمكة يدعو الله تعالى وقد اقشعرَّ جَسَدُه، فقلتُ له: ما هذا يا ابن بنت رسول الله؟ فقال: إنِّى لأَ ستَحِى من الله أن أدعوه ـ عز وجل ـ بلسان ما أديت به حق شكره» ومناقبه كثيرة، غير محصورة.

وطبيعى والأمر كذلك أن يكون هذا حال السيدة كلثوم، وقد كان أبوها الإمام القاسم الطيب، وشقيقها يحيى الشبيهى. طبيعى أن تكون ذات علم وفضل، وأخلاق وإيمان، وأن تكون هى مقصد كل من أحب الإسلام ديناً، ومحمداً رسولا وقبل ذلك القرآن كتاباً، فيتجمع حولها الناس طلباً للعلم ومحبة لآل البيت رضوان الله عليهم.

يحدث هذا على الرغم من العسف والتنكيل الذي استُهدف به العلويين من أهل البيت بعد مأساة كربلاء، سواء من بنى أمية أو من بنى العباسى. فكل هذا لا يقلل من تعاطف الكثيرين مع آل البيت.

لقد بلغ تقدير الناس لهذه السيدة الفضلى أنه كان ينتسب إليها بعد ذلك عدد من أفراد أسرتها فى مصر والحجاز فيعرفون ـ كما يقول الأسعد النسابه بالكلثميين نسبة إلى اسم هذه السيدة الطاهرة.

ويقال: إن هذه السيدة تزوجت من مصر. وأنجبت عدداً من الأولاد لم يذكر الرواة والمؤرخون عددهم، أو أسماءَهم، وإنما يكتفى بأن يقول هؤلاء الرواة والمؤرخون ما ذكره مؤرخ الكواكب السيارة: «أنها تزوجت وحصل لها أولاد دفنوا معها فى قبرها بمصر».

وتنبه الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن المساجد إلى أمر يبدو أنه اختلط على بعض كتاب التراجم والسير، مؤداه أن السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب ليست هى السيدة أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق. ذلك لأن الأخيرة مدفونه فى مشهد آخر. مؤكدة بأن هذا الخلط حدث نتيجة لأن كلا المشهدين موجود بمصر، وبالتحديد فى طريق الإمام الليث بن سعد.

وقد توفيت السيدة كلثوم بعد والدها الإمام القاسم الطيب فى نهاية القرن الثالث الهجرى، ويحدد المقريزى فى خططه ومكان مدفنها قائلا: موضع دفن السيدة كلثوم بمقابر قريش بمصر..».

* * *